



الكشوف الأوروبية في دواخل إفريقيا الغربية أبرز المستكشفين وأهم النتائج

أحمد عباد

طالب دكتوراه - جامعة غرداية

ملخص

تُعد حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية من أهم المحطات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، بالنظر إلى الانعكاسات الهامة التي نتجت عنها سواء بالنسبة لأوروبا أو الأراضي المكتشفة. وإذا كانت العلاقة بين أوروبا وإفريقيا علاقة قديمة، فإنها اقتصرت على الجزء الشمالي من القارة السمراء فقط، وابتداءً من القرن الخامس عشر الميلادي بدأ اتصال الأوروبيين ببقية مناطق القارة الأخرى، بالسواحل أولاً، ومن بعده بالمناطق الداخلية التي اكتمل استكشافها مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي. وإذا كان استكشاف القارة الإفريقية يُشبه استكشاف بقية القارات، فإن ما يُميّزه هو تسبّب في استعباد وترحيل ما بين 50 و80 مليون من خيرة أبناء القارة قسراً نحو العالم الجديد، وهو الأمر الذي زاد من معاناة سكان هذه القارة، وأصبح وصمة عار في تاريخ أوروبا.

الكلمات المفتاحية: الكشوفات الجغرافية؛ غرب إفريقيا؛ الرقيق؛ الاستعمار؛ فرنسا؛ بريطانيا.

Abstract

With the beginning of the European Renaissance, the geographical discoveries were among the most important moments in the history of modern and contemporary Europe, given the important repercussions that resulted from them, both for Europe and the lands discovered. If the relationship between Europe and Africa is old, it is confined only to the northern part of the black continent. From the 15th century AD, the Europeans began to connect with the rest of the continent, first along the coasts and then in the interior, which was completed by the end of the 19th century AD. If the exploration of the African continent was like exploring other continents, what distinguishes it is that between 50 and 80 millions of Africans were enslaved and deported into the new world, and this has increased the suffering of this continent's people, and has become a stigma in the history of Europe.

Key words: Geographical discoveries, West Africa, Slavery, Colonialism, France, Britain.

توطئة:

تُعتبر الاستكشافات الجغرافية الأوروبية في إفريقيا من أهم المحطات التاريخية التي مرّت بها القارة السمراء، وذلك بالنظر إلى النتائج التي تمخضت عنها، ومن ورائها المآسي والويلات التي عانت منها، وأهم هذه النتائج نذكر ازدهار تجارة الرقيق ووقوع القارة تحت الهيمنة الاستعمارية الأوروبية. وقد يعتقد البعض بأن هذه الاستكشافات كانت عملية سهلة، وأنّ كل ما نتج عنها يُصنف في خانة السيئ، لكن الأمر لم يكن كذلك والدليل أن عملية استكشاف هذه القارة أخذ من الأوروبيين قرابة الأربعة قرون، منها ثلاثة قرون اقتصر فيها الوجود الأوربي في إفريقيا على السواحل فقط. من جهة أخرى، وكما كانت هذه الاستكشافات سبباً في ازدهار تجارة الرقيق حيث تمّ ترحيل ما بين خمسين وثمانين مليون إفريقي قسراً نحو العالم الجديد، فإنه لا يمكن لأحد مُتجرّد من العاطفة أن يُنكر الدور الذي قام به بعض المستكشفين في تحسيس الرأي العام الأوربي ومن ورائه النخبة السياسية بمعاناة السود، وهو ما كُلّل في النهاية بتأسيس الجمعيات والمنظمات المناهضة لتجارة الرقيق، والتي ضغطت على حكوماتها حتى رضخت للأمر الواقع، فقامت الدول الاستعمارية الأوروبية بسن قوانين تمنع هذه التجارة، وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا سنتي 1833م و1848م على التوالي، بل شكّلت لذلك جيوشاً تسهر على تطبيق هذه القوانين في غرب إفريقيا.

سنحاول في هذا المقال عرض أهم المستكشفين الأوروبيين الذين اخترقوا دواخل إفريقيا الغربية، والدور الذي أدّوه في التعريف بهذا الجزء من القارة، وكل ما سينجر عن ذلك في ما بعد.

أولاً: بداية الاهتمام الأوربي بدواخل إفريقيا الغربية:

تعود بداية الوجود الأوربي في غرب إفريقيا إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك تزامناً مع بدايات الصراع الاستعماري بين البرتغال وإسبانيا، وهو الصراع الذي اشتد بعد طرد المسلمين من شبه جزيرة إيبيريا. والحقيقة أن البرتغاليين كانوا السابقين في استكشاف السواحل الغربية لإفريقيا، وذلك لأسباب مختلفة، أهمها الدور الذي أدّاه الأمير هنري (1394-1460م)؛ المعروف بهنري الملاح في تشجيع

وتوجيه حركة الاستكشاف الجغرافي نحو المناطق الساحلية لإفريقيا، بفضل رعايته للمستكشفين، وإنشاءه لمدرسة تُعنى بالجغرافيا والخرائط في مدينة ساغرش Sagres جنوب البرتغال¹، وما ساعده على ذلك هو احتلاله لمدينة سبتة المغربية سنة 1414م². في عهد هذا الأمير وبعد وفاته تمكن البرتغاليون من استكشاف كامل الساحل الغربي لإفريقيا بداية برأس بوجدور سنة 1434م على يد جيل إيانس³ مروراً بشواطئ السينغال وغينيا سنة 1450م⁴ ثم جزر الرأس الأخضر سنة 1456م⁵ ثم مصب نهر الكونغو سنة 1482م⁶ وصولاً إلى رأس الرجاء الصالح الذي وصله بارثولوميو دياز سنة 1487م⁷.

رغم أن الوجود الأوربي في غرب إفريقيا، يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، إلا أن استكشاف دواخل هذه المنطقة تأخر حتى القرن التاسع عشر، والأكد أن هذا الانشغال الأوربي عن الداخل الإفريقي لقراءة الأربعة قرون لم يكن اختياراً أو إستراتيجيةً مخططاً لها، وإنما كان واقعاً فرضته مجموعة من الظروف والعوامل المختلفة هي:

1- COQUERY-VIDROVITCH, CATHERINE: LA DECOUVERTE DE L'AFRIQUE: L'AFRIQUE NOIRE ATLANTIQUE DES ORIGINES AU XVIII SIECLE, L'HARMATTAN, PARIS, 2003, p.85

2 - صلاح أحمد هريدي علي، عبد المطلب عصام محروس، الإمام محمد رفعت: تاريخ أوربا الحديث، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، ط1، 2005، ص76.

3- زاهر رياض: الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها على تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968، ص153.

4 - كي-زيريو جوزيف: تاريخ إفريقيا السوداء، الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع و الاعلان، مصراته، ط1، 2001، ص322.

5 - صلاح أحمد هريدي علي، عبد المطلب عصام محروس، الإمام محمد رفعت: المرجع السابق، ص77.

6 - صالح رمضان محمد: الاستكشافات الجغرافية لإفريقيا، مجلة المؤرخ العربي، الجزائر، العدد31، السنة12، ص17.

7 - كي-زيريو جوزيف: المرجع السابق، ص322.

- وجود الصحراء الكبرى المترامية الأطراف في الجزء الشمالي من إفريقيا، وهو ما شكّل حاجزاً طبيعياً منع الأوربيين من الوصول إلى المنطقة.
- وكما كان هناك حاجز من الناحية الشمالية، فإن الجهة الغربية لم تكن أحسن استضافة للأوربيين. فإذا أخذنا مثلاً الساحل الممتد بين سيراليون وخليج البنين على مسافة ألفين وأربعمائة وأربعة عشر كيلومتراً، فإنه لا وجود لخليج واحد يُمكن أن يحمي سفينة من الرياح والتيارات القوية للمحيط، وكان على السفن البقاء على بُعد ثلاثة كيلومترات من الساحل¹.
- على المناطق الساحلية لخليج غينيا يسود مناخ قاس يمتاز بالحرارة والرطوبة العاليتين²، وهذا ما ساعد على انتشار بعض الأمراض القاتلة، والتي أودت بحياة الكثير من الأوربيين حتى كان خليج غينيا يُسمى "مقبرة الرجل الأبيض"³.
- هذا المناخ أدى أيضاً إلى نمو غطاء نباتي كثيف على طول سواحل إفريقيا الغربية، يبدأ بالغابات والأدغال الكثيفة الممتدة لمئات الكيلومترات نحو الداخل⁴، ليتدرج إلى السفانا مما شكّل مانعاً آخر لأي محاولة أوربية لاخترق الداخل خاصة مع وجود أصناف من الحيوانات المفترسة كالأسود، والحشرات الضارة، مثل ذبابة التسي⁵.

1- WILSON, LEIGHTON: WESTERN AFRICA ITS HISTORY, CONDITION AND PROSPECTS, SAMPSON LOW, SON, AND CO., LONDON, 1856, PP.26-27

2 - شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرازق إبراهيم: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، دار الثقافة، الدوحة، ط 1، 1987، ص 8.

3 - ثريا شرف: الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، ترجمة عبد العزيز طريح شرف، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، 1993، ص 188.

4 - WILSON, LEIGHTON: OP.CIT, P.27

5 - عيسى علي إبراهيم: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2000، ص 126.

- ترتفع الأراضي من السواحل نحو الداخل، حيث يغلب الطابع الهضابي على أراضي غرب إفريقيا التي تنتهي فجأة بسهول ساحلية ضيقة¹، وتتخلل هذه الهضاب مجموعة من الجبال التي تشكل حداً طبيعياً بين المناطق الداخلية والمناطق الساحلية².
- تضم هذه المنطقة الكثير من الأنهار، ويصب معظمها في المحيط الأطلسي، وهي أنهار غير صالحة للملاحة في أجزاء طويلة من مجاريها³، ولهذا السبب فإن أغلب هذه الأنهار تم كشفها بالطرق البرية المجاورة لها⁴.

- غياب وسائل النقل والاستكشاف حيث اعتمد جُل المستكشفين في تنقلاتهم على الحيوانات كالخيول والبغال والحمير، ضُف إلى ذلك غياب وسائل التبريد والأغذية المحفوظة⁵.

- منذ اكتشافات القرن الخامس عشر الميلادي، لم يكن الأوروبيون يستهدفون في البداية إفريقيا في حد ذاتها، وإنما كان الهدف الوصول إلى أسواق الشرق الأقصى، وكان إهتمامهم ينصبُّ على تجارة التوابل الهندية.

- بعد اكتشاف القارة الأمريكية نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، استحوذت هذه القارة على اهتمام الأوروبيين، لأن عملية اختراقها كانت أسهل، ووفرت فرصاً تجارية واقتصادية واعدة مقارنة بإفريقيا.

- عندما وصل الأوروبيون إلى السواحل الغربية لإفريقيا وقعوا فجأة على تجارة "مُرَبَّحة" أبعدتهم لمدة طويلة عن التفكير في التوغل إلى المناطق الداخلية، ونقص هذا تجارة العبيد التي درت أموالاً طائلة على الأوروبيين، خاصة أن تجار العبيد المحليين

1 - المرجع نفسه: ص ص 119، 120.

2 - حلمي محروس إسماعيل: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر من الكشوف الجغرافية إلى قيام منظمة الوحدة الإفريقية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2004، ج 1، ص 8.

3 - إلهام محمد علي ذهني: جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي 1850-1914، دار المريح، الرياض، 1988، ص 25.

4 - شوقي عطا الله الجمل و عبد الله عبد الرازق إبراهيم: المرجع السابق، ص 8.

5 - فتحي محمد أبو عيانة: جغرافية إفريقيا دراسة إقليمية للقارة مع التطبيق على دول جنوب الصحراء، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، 1983، ص 12.

كانوا يتكفلون بنقل العبيد من المناطق الداخلية إلى السواحل قبل بيعها للتجار الأوروبيين.

وفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين، ظهرت العديد من الجمعيات الجغرافية في أوروبا على يد المثقفين والأثرياء، والتي أعطت اهتماماً ودفعا بالغين لحركة الكشوفات الجغرافية في العالم وخاصة إفريقيا، ومن أشهر هذه الجمعيات الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، وكان اسمها الرسمي جمعية ترقية استكشاف الأراضي الداخلية لإفريقيا Association for promoting the discovery of the inland districts of Africa¹، وتأسست سنة 1788م بفضل جهود رئيسها السير جوزيف بانكس Joseph Banks، وهي جمعية اختصت بإفريقيا فقط كما يدل على ذلك إسمها.

ولم تكن هذه الجمعيات تتحرك بمفردها دائماً، وإنما كانت أحياناً تتعاون مع الدوائر السياسية والعسكرية في بلدانها بسبب حاجتها إلى الأموال أحياناً والحماية أحياناً أخرى من أجل تأمين مستكشفيها، ولذلك لم تكن أهداف هذه الرحلات الاستكشافية علمية بحتة، بل كانت لها أهداف سياسية واقتصادية كذلك. وفي ما يلي عرض لأهم المستكشفين الذين جاءوا خلال هذه الفترة:

1- **فردريك هورنمان** Frederick Horneman: في سنة 1789م اختارت الجمعية الجغرافية الملكية شاباً ألمانيا يدعى "فردريك هورنمان" لاستكشاف المناطق الغربية من إفريقيا². بدأ هورنمان رحلته من القاهرة في نفس السنة، بالانضمام إلى قافلة اتجهت إلى سيوه و بعدها اتجهت إلى مرزوق في فزان³، و نجح في الوصول إلى بورنو

1 - جوزفين كام: المستكشفون في إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1983، ص86.

2 - المرجع نفسه، ص87.

3 - فتحي محمد أبوعيانة: المرجع السابق، ص40.

Bornou الواقعة على نهر النيجر، لكنه لقي حتفه هناك¹. وللإشارة فإن هورنمان هو أول أوروبي تمكن من عبور الصحراء الكبرى².

2- مونجو بارك Mungo Park: لقد شكّل نهر النيجر تحدياً للمستكشفين، و حظيت مشكلة هذا النهر باهتمام هام في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي³. فإلى غاية هذه الفترة كانت المعلومات حول مجراه ومصبّه غامضة و قليلة جداً.

ولكشف أسرار هذا النهر، فقد اتصلت الجمعية الملكية بطبيب إسكتلندي شاب هو "مونجو بارك" Mungo Park⁴. بدأ بارك صعود نهر غامبيا ملاحاً يوم 21 ماي 1795م حتى بلغ بيسانيا، واضطر للمكوث فيها شهوراً عدة بسبب حمى أصابته⁵، وفي ديسمبر من نفس السنة غادر بيسانيا⁶؛ قاصداً نهر السنغال وعبره باتجاه نهر النيجر⁷، وفي جويلية 1796م وصل إلى بلدة سيجو Ségou المطلة على نهر النيجر، فكانت تلك أول مرة يرى فيها نهر النيجر. بعد سيجو توجه نحو مدينة سيلا Sila، لكن و بسبب المصاعب التي واجهته قرّر هذا المستكشف وضع حدٍ لرحلته والعودة من حيث جاء في ماي 1797م⁸.

1 - عيسى علي إبراهيم: المرجع السابق، ص 196.

2 - فتحي محمد أبوعيانة: المرجع السابق، ص 29.

3 - س هوارد: أشهر الرحلات إلى غرب إفريقيا، ترجمة عبد الرحمان عبد الفتاح الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص 63

4 - جوزفين كام: المرجع السابق، ص 88.

5- DUMONT, JEAN (ED.) : OP.CIT, TOME4, P334

6 - س هوارد: المرجع السابق، ص 73.

7 - أحمد نجم الدين فليجة: إفريقيا دراسة عامة وإقليمية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، بدون تاريخ، ص 59.

8 - DUMONT, JEAN (ED.) : OP.CIT, TOME4, P335

في رحلته الثانية انطلق بارك عبر نهر السنغال ثم نهر غامبيا، حيث سينطلق إلى نهر النيجر من بيسانيا في شهر ماي 1805م¹. بعدها توغل هو ورفاقه في النيجر حتى وصلوا إلى مدينة بوسا² Boussa، وهناك قُتل على يد الوثنيين³. وكانت هذه المدينة أبعد نقطة يصل إليها بارك في رحلته.

3- هوغ كلايبرتون Hugh clapperton: بتكليف من وزارة المستعمرات البريطانية للقيام برحلة استكشافية⁴، انطلق هذا المستكشف من مدينة باداغري⁵ Badagry يوم 7 ديسمبر 1825م، وفي 22 يناير 1826م دخل مدينة كاتونجا Katanga عاصمة اليوروبا ثم مدينة كانو⁶ Kano ثم توجه إلى سوكوتو⁷ Sokoto، وهناك مريض ومات يوم 13 أبريل 1827م⁸. ورغم أن كلايبرتون لم يستطع التعرف على المجرى الكامل لنهر النيجر ومصبه، إلا أنه تمكن من زيارة

1- PARK, MUNGO: THE JOURNAL OF A MISSION IN THE INTERIOR OF AFRICA IN THE YEAR 1805, JOHN MURRAY, LONDON, 1815, P.8

2- تقع في شمال نيجيريا، أغرقها السد الذي بُني في ستينيات القرن 20م والذي يبعد عنها بـ 15 كم. يُنظر: DUMONT, JEAN (ED.): OP.CIT, TOME4, P.334.

3 - كولن ماكيفيدي: أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص158.

4 - BARON, AUGUSTE : AVENTURES EN AFRIQUE, EUGENE ARDANT ET G.THIBAUT, LIMOGES, 1867, P.79

5 - تقع حالياً على ساحل البنين. يُنظر: DUMONT, JEAN (ED.): OP.CIT, TOME4, P.371

6 - في شمال نيجيريا حالياً. يُنظر: GRAND DICTIONNAIRE ENCYCLOPEDIQUE LAROUSSE (GDEL), LIBRAIRIE LAROUSSE, CANADA, 1984, TOME 4, P.5947

7 - تقع في الشمال الغربي من نيجيريا على نهر سوكوتو. يُنظر: GDEL, TOME 9, OP.CIT P.9665

8 - حلمي محروس إسماعيل: المرجع السابق، ج1، ص13.

مناطق عديدة من حوض النيجر، وكان أول أوربي يصل إلى السودان الغربي انطلاقاً من ساحل غينيا¹.

4- رونييه كاييه René Caillet: في سنة 1824م توجه روني كاييه نحو السنغال، وبعد أن تعلم اللغة العربية ومبادئ الإسلام، توجه عام 1827م إلى نهر ريو نوّنز *Rio Nuñez*²، وانطلق من مصبه يوم 20 أبريل 1827م وفي 8 ماي وصل إلى ضفاف نهر السنغال، وفي 13 أوت 1827م وصل إلى مدينة تيمي *Timé*³ التي قضى فيها قرابة ستة أشهر بسبب المرض، ليغادرها في 10 يناير 1828م متوجهاً نحو مدينة جني *Jenné*⁴. بعد الوصول إلى مدينة جني، توجه المستكشف الفرنسي نحو مدينة تمبكتو، وفي 19 ابريل 1828م حطّ في *Kabra* كابر، وهي ميناء مدينة تمبكتو على نهر النيجر، وفي 20 أبريل دخل مدينة تمبكتو⁵، بعد سنة على انطلاقه من السنغال قطع فيها حوالي ألفين و أربعمئة كيلومتر منها ألف و ستائة مشياً على الأقدام⁶.

5- ريتشارد لاندر Richard Lander: انطلق ريتشارد لاندر و أخوه جون من انجلترا يوم 9 يناير 1830م، ووصلا إلى ساحل غرب إفريقيا يوم 22 فبراير عند أهم مركز انجليزي في ساحل الذهب، اسمه كوست كاسل *Coast castle*⁷، ومنه

1 - زاهر رياض: المرجع السابق، ص 276.

2 - DUMONT, JEAN (ED.) : OP.CIT, TOME4, P.366

3 - تقع حالياً في حدود مالي مع كوت ديفوار. يُنظر: LAROUSSE: LES GRANDS EXPLORATEURS, EDITIONS PIERRE CHIESA, 2006, P.181

4 - BARON, AUGUSTE : OP.CIT, PP110-118

5 - LES GRANDS EXPLORATEURS, OP.CIT, P198

6 - جوزفين كام: المرجع السابق، ص 146.

7 - LANDER, RICHARD AND JOHN: JOURNAL D'UNE EXPEDITION ENTREPRISE DANS LE BUT D'EXPLORER LE COURS ET L'EMBOUCHURE DU NIGER, POULIN, PARIS, 1852, P.53

توجهها نحو مدينة باد/جري التي وصلها يوم 19 مارس¹. بعد ذلك توجهت بعثة لاندر إلى مدينة بوسا الواقعة على ضفاف نهر النيجر، فوصلتها بعد ستة أشهر تقريباً من البداية، يوم 17 جوان²، ومنها أبحر الأخوان لاندر في نهر النيجر، بعدما زودهما ملك بوسا بقارب³، و في أثناء عملية الإبحار تعرض المستكشفان للأسر على يد أفراد من إحدى القبائل المعادية للأجانب، لكن أطلق سراحهما، وواصلتا مسيرتهما حتى بلغا مصب النيجر بعد شهرين من مغادرتهما بوسا. عاد الأخوان لاندر إلى إنجلترا في جوان 1831م⁴.

6- هوغ كلايرتون، والتر اودني و ديكسون دنهام: بعدها جاءت رحلة من أبرز الرحلات التي عرفتها الصحراء الكبرى، وتألفت من ثلاثة مستكشفين اسكتلنديين هم والتر اودني Walter Oudney وهوغ كلايرتون Hugh Clapperton وديكسون دنهام Dixon Denham. انطلقت رحلة هذا الثلاثي من طرابلس الليبية في مطلع سنة 1822م، و وصلت إلى مرزوق يوم 08 أبريل من نفس السنة⁵. بعد ذلك انطلقت البعثة عابرة الصحراء فوصلت إلى بيلما⁶ Bilma في بداية سنة 1823م، وفيها استراحت تحضيراً لبقية المشوار⁷. بعدها انطلقت البعثة من جديد نحو الجنوب حتى بلغت بحيرة تشاد في شهر فبراير 1823م، و منها انطلقت ودخلت

1 - IBID, P.57

2 -IBID, P.350

3- LES GRANDS EXPLORATEURS: OP.CIT, P.199

4 -IBID, P.200

5 - أتيليو موري: الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا منذ مطلع ق 19م حتى الاحتلال الايطالي، ترجمة محمد التليسي، ط 2، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس، ليبيا، 1984، ص 26.

6 - هي واحة تقع حالياً في شرق النيجر. يُنظر: GDEL, OP.CIT, TOME 2, P.1250

7 - إبراهيم مياي: الاهتمام الفرنسي بالصحراء، أشغال ندوة تحت عنوان طريق القوافل، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ بالتعاون مع اللجنة الوطنية لليونسكو، الجزائر، 2001، ص 82.

مدينة كوكا *Kouka* عاصمة البورنو *Bornou*¹. في كوكا توجه أودني و كلايرتون نحو الجنوب الشرقي وتمكنا من اكتشاف نهر شاري *Chari* وأثبتا بأنه لا يتصل بنهر النيجر²، ثم توجهنا نحو الغرب قاصدين مدينة كانو *Kano*. إن وفاة أودني بسبب السُّل مطلع سنة 1824م³ لم تُثن رفيقه كلايرتون عن مواصلة طريقه، فوصل بعد فترة قصيرة إلى مدينة كانو، وفي 16 مارس 1824م وصل إلى سوكتو *Sokoto* عاصمة الفولاني⁴. في سوكتو استقبل كلايرتون من طرف السلطان محمد بيلو⁵ الزعيم الروحي لحكام الهاوسا من الفولاني⁶.

7- جيمس ريتشاردسون، هاينريش بارث و أدولف أوفرويج: قبيل متصف القرن التاسع عشر الميلادي، عرف السودان الغربي واحدة من أهم الرحلات الجغرافية الاستكشافية، وهي الرحلة التي كانت بقيادة جيمس ريتشاردسون James Richardson. كانت بعثة ريتشاردسون تضم عالماً ألمانياً هو هاينريش بارث Heinrich Barth، وهو عالم مثقف، وله دراية باللغة العربية⁷. إلى جانب بارث، ضمت بعثة ريتشاردسون مستكشفاً ألمانياً آخر هو عالم الطبيعة والجيولوجي أدولف أوفرويج Adolf Overweg.

غادرت بعثة "ريتشاردسون" مدينة طرابلس في 24 مارس 1850م، وفي الشهر الموالي وصلت إلى مرزوق، وبعدها وصلت إلى مدينة أغاديس في شهر أكتوبر، فكان

1 - المرجع نفسه، ص 82.

2 - جوزفين كام: المرجع السابق، ص 127.

3 - المرجع نفسه، ص 128.

4 - إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 82.

5 - جي دي فبج: تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر، ط 1، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص 237.

6 - زاهر رياض: المرجع السابق، ص 275.

7 - إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 85.

هؤلاء المستكشفين أول من زار هذه المدينة من الأوروبيين¹. وبعدها وصلوا إلى بورنو في شهر يناير 1851م، وهناك افترقوا²، حيث توجه ريتشاردسون إلى زندر³ Zinder الواقعة شمال مدينة كانو، وتوجه بارث إلى كانو، أما أوفرويج فتوجه إلى بحيرة تشاد، وكان الثلاثة قد اتفقوا على أن يكون ملتقاهم في مدينة كوكا القريبة من بحيرة تشاد⁴.

بعد وصوله إلى زندر يوم 4 يناير 1851م توفي ريتشاردسون بسبب المرض، أما رفيقه فقد التقيا حسب الاتفاق في كوكا، ثم توجهوا نحو الجنوب حيث دخلوا مدينة يولا⁵ Yola، منها تقدما حتى بلغا منابع نهر بنوي Bénoué، ثم عادا مجدداً إلى كوكا وواصلوا فحص بحيرة تشاد، واكتشفا أثناء ذلك نهر شاري⁶. بعد ذلك توفي أوفرويج في شهر سبتمبر 1852م، و بقي بارث وحيداً لكنه واصل استكشاف المناطق المجاورة، و ظل يبعث بانتظام تقارير عن تفاصيل اكتشافاته إلى الجمعية الجغرافية الملكية ببريطانيا⁷.

بعد ذلك توجه بارث نحو الغرب ووصل إلى سوكتو، أين استقبله سلطانها وأكرم وفادته، ومنها توجه نحو بلدة ساي⁸ Say، ليصل أخيراً إلى تمبكتو في 5 سبتمبر 1853م⁹ ومكث فيها حوالي ثمانية أشهر، في حماية أحد أعيان المدينة وهو

1- DUMONT, JEAN (ED.) : OP.CIT, TOME5, P.174

2- إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 85.

3- تقع حالياً في وسط جنوب النيجر. يُنظر: محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية: المسلمون في غرب إفريقيا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2007، ص 301.

4- جوزفين كام: المرجع السابق، ص 178.

5- تقع اليوم في شرق نيجيريا قرب الحدود مع الكامرون. يُنظر: باري محمد فاضل علي وكريدية سعيد إبراهيم: المرجع السابق، ص 194.

6- جوزفين كام: المرجع السابق، ص ص 179، 180.

7- DUMONT, JEAN (ED.) : OP.CIT, TOME5, P.174

8- تقع حالياً في النيجر جنوب العاصمة نيامي على نهر النيجر. يُنظر: باري محمد فاضل علي وكريدية سعيد إبراهيم: المرجع السابق، ص 160.

9- DUMONT, JEAN (ED.) : OP.CIT, TOME5, P.175

الشيخ البكاي¹. هذه الفترة كانت فرصة كافية للتعرف أكثر على مدينة تمبكتو و كل المناطق المجاورة لها من حيث جغرافيتها، سكانها وتاريخها، فاستطاع جمع معلومات كثيرة وقيمة حول الدول والشعوب والقبائل في تلك المناطق.

8- غرهارد رولفس Gerhard Rohlfs: كان منتمياً للكتيبة الأجنبية التابعة للجيش الفرنسي العاملة في الجزائر²، وعُرفَ بشغفه بالشعوب الإسلامية³ وبحوثه في اللغة العربية⁴. انطلق رولفس من طرابلس سنة 1865م، وعبر الصحراء حتى وصل إلى بورنو، ومنها أبحر في نهر بنوي حتى النقطة التي يلتقي فيها مع نهر النيجر، ومن هناك توجه إلى بلاد اليوروبا Yorouba حتى وصل إلى مدينة لاغوس الواقعة على خليج غينيا⁵، وبذلك يعتبر رولفس أول أوروبي ينجح في الوصول إلى خليج غينيا انطلاقاً من ساحل البحر المتوسط⁶.

بعد هذه الموجة من المستكشفين الجغرافيين، عرف النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي موجة جديدة من المستكشفين تزامناً مع اشتداد الأطماع الاقتصادية والسياسية لكل من فرنسا وبريطانيا في المنطقة، وأغلب هؤلاء ضباط فرنسيون نظراً لأن فرنسا كانت صاحبة اليد العليا في المنطقة. وأهم هؤلاء المستكشفين:

1 - جوزفين كام: المرجع السابق، ص ص 181، 182.

2 - إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 89.

3 - LES GRANDS EXPLORATEURS: OP.CIT, P.225

4 - ثريا شرف: الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، ترجمة عبد العزيز طريح شرف، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، 1993، ص 217.

5 - فتحي محمد أبوعيانة: المرجع السابق، ص 32.

6 - يسرى عبد الرزاق الجوهرى: الكشف الجغرافية دراسة لتاريخ الكشف الجغرافية و لتطور الفكر الجغرافي، دار النهضة العربية، بيروت، 1984، ص 231.

1- ليوبولد باني Léopold Panet: كان هذا الضابط الفرنسي على معرفة باللغة العربية وبالموريين، وذو خبرة متواضعة في الاستكشاف اكتسبها من مشاركته في إحدى الرحلات إلى كارتا *Kaarta* سنة 1846م.

غادر باني مدينة سان لويس متجهاً نحو الشمال يوم 6 يناير 1850م، برفقة قافلة للتجار، وفي 28 يناير من نفس السنة بلغ شنقيط في جنوب شرق وادي الذهب *Rio de Oro*¹. في هذه المنطقة أبدى هذا المستكشف اهتماماً كبيراً بالفرص التجارية التي قد تمنحها المنطقة، كما أبدى في نفس الوقت إعجابه بكميات الملح الوفيرة ونوعيته الجيدة هناك².

2- إياسنت إيكار Hyacinthe Hecquard: تعتبر رحلة هذا المستكشف نقطة الانطلاق للتوغل الفرنسي بغرب إفريقيا في طابعه السياسي³. كان إيكار ضابطاً في الجيش الفرنسي بالسنگال، فكلّفه حاكم السنگال بودان Baudin بمهمة عبور فوتا جالون لإيصال هدية إلى شيخ تلك المنطقة، ومنه التوجه نحو سييجو على نهر النيجر من أجل تبليغ رسالة إلى حاكم البلاد.

بدأت رحلة إيكار يوم 23 جوان 1850م، من بلدة سدهيو⁴ *Sed'hiou* في منطقة الكازامنس⁵، لكنه عجز عن بلوغ مدينة سييجو نتيجة الصعوبات التي

1 – DUMONT, JEAN (ED.): OP.CIT, TOME5, PP. 170–171

2 – BUNGE, ERNEST: DE PARIS A TOMBOUCTOU EN HUIT JOURS, SOCIETE DES ANCIENS COURTIER, HAVRE, 1895, PP16–17

3 – DUMONT, JEAN (ED.): OP.CIT, TOME5, P.188

4 – تقع على الضفة اليمنى لنهر الكازامنس بالسنگال. يُنظر: GDEL, OP.CIT, TOME 9, P.9452

5- HYACINTHE, HECQUARD: RAPPORT SUR UN VOYAGE D'EXPLORATION DANS L'INTERIEUR DE L'AFRIQUE, LA REVUE COLONIALE, MARS 1852, PP195-196

اعترضته. ورغم عدم بلوغ هدفه، إلا أن هذا المستكشف استطاع وضع دراسة دقيقة لمجرى نهر السنغال الأعلى، وتمكن من دراسة التنظيم السياسي لمنطقة فوتا جالون¹.

3-أبدون-أوجين ماج Abdon-Eugène Mage:

يعتبر هذا الضابط المستكشف، من أبرز المستكشفين الفرنسيين في السودان الغربي؛ بالنظر إلى المدة الزمنية التي قضها في أجزائه الداخلية، والاكتشافات التي حققها، وبنظرياته الاستعمارية التي أصبحت من معالم السياسة الفرنسية خلال توسعها الاستعماري بالمنطقة.

كانت مهمة المستكشف ماج، حسب تعليمات حاكم السينغال فيدهيرب Faidherbe، هي استكشاف المناطق الواقعة بين السنغال والنيجر الأعلى²، وكذلك محاولة الاتصال بالحاج عمر والاتفاق معه³، وكان الحاج عمر قد كوّن إمبراطورية بعدما سيطر على سيجو سنة 1861م، وعلى ماسينا⁴ وتمبكتو في السنة الموالية⁵.

تمكّن ماج سنة بعد بداية رحلته التي كانت في 1863م من الوصول إلى مدينة سيجو⁶، وهناك استقبله أمهادو شيخو، أحد أبناء الحاج عمر، وحاول إخفاء خبر وفاة والده الذي اغتالته بعض قبائل ماسينا خوفاً من انتشار الفتنة في أرجاء إمبراطوريته. بقي ماج شبة محتجز مدة عامين في سيجو أملاً في رؤية الحاج عمر⁷، وخلال فترة الإقامة هذه، جمع معلومات تاريخية وسياسية غنية جداً، وتمكن في النهاية من توقيع

1 - DUMONT, JEAN (ED.): OP.CIT, TOME5, P.188

2- MAGE, EUGENE : VOYAGE DANS LE SOUDAN OCCIDENTAL 1863-1866, LE TOUR DU MONDE, NOUVEAU JOURNAL DES VOYAGES, P2

3 -DUMONT, JEAN (ED.) : OP.CIT, TOME5, P.189

4 - هي مقاطعة في مالي على الضفة اليسرى لنهر النيجر. يُنظر: GDEL, OP.CIT, TOME 6, P.6506

5- FAIDHERBE, LE GENERAL: LE SENEGAL LA FRANCE DANS L'AFRIQUE OCCIDENTALE, HACHETTE, PARIS, 1889, P.299

6- DUMONT, JEAN (ED.): OP.CIT, TOME5, P. 189

7- FAIDHERBE, LE GENERAL: OP.CIT, PP299-300

معاهدة تجارية مع أحامدو شيخو¹. في شهر ماي 1866م؛ غادر ماج مدينة سيجو عائداً إلى السنغال².

4- جوزيف سيمون غالييني Joseph-Simon Gallieni: هو ضابط في الجيش الفرنسي، تخرج من مدرسة سان سير³ *Saint-Cyr* العسكرية الفرنسية سنة 1870م⁴. تميّز بانجازاته التي حققها سواءً على الصعيد الاستكشافي أو الصعيد العسكري. في سنة 1879م، عينه حاكم السنغال بريار دوليسل Brière de l'Isle لاستكمال المشروع المتمثل في الوصول إلى هضبة النيجر الأعلى عن طريق اجتياز الجبال الموجودة بين هذا النهر والسنغال⁵، ومحاولة فتح منافذ تجارية في تلك المناطق⁶. بدأ غالييني رحلته من سان لويس يوم 30 يناير 1880م على رأس بعثة كبيرة⁷، وفي 30 مارس 1881م، وصلت البعثة إلى بلدة بافولابي الواقعة على ضفاف نهر بافينغ، وفي الشهر الموالي وصلت إلى بلدة كيتا *Kita*⁸. بعد ذلك، توجه نحو سيجو عاصمة إمبراطورية التكرور الإسلامية التابعة لأحامدو شيخو، لكنه لم يتمكن من الوصول إليها لأن هذا الحاكم رفض استقباله، وبالتالي توقفت رحلته عند بلدة نانغو *Nango*⁹، ومكث فيها سنة كاملة¹، واستطاع أن يوقع مع هذا الزعيم التكروري

1- DUMONT, JEAN (ED.): OP.CIT, TOME5, P. 190

2- IBID, P190

3 - مدرسة عسكرية أسسها نابليون بونابرت سنة 1808. يُنظر : GDEL, OP.CIT , TOME 9, P.9228

4- BESANCENET, ALFRED DE: LES FRANÇAIS AU CŒUR DE L'AFRIQUE, G.TEQUI, PARIS, 1884, P.74

5 - DUMONT, JEAN (ED.): OP.CIT, TOME5, P.190

6 -GALLIENI, JOSEPH-SIMON: VOYAGE AU SOUDAN FRANÇAIS 1879 - 1881, HACHETTE, PARIS, P.5

7- IBID, P.12

8- BESANCENET, ALFRED DE: OP.CIT, PP.76-83

9- DUMONT, JEAN (ED.) : OP.CIT, TOME5, P.307

معاهدة يوم 3 نوفمبر 1880م². ولما سيطر الفرنسيون على كيتا، سمح أحمدادو لغالييني بالمغادرة³، وفي 12 ماي 1881م وصل إلى سان لويس⁴.

كانت نتائج رحلة غالييني حافلة بالانجازات الجغرافية، حيث رصد كل مظاهر السطح والمناخ بالمنطقة، وجمع معلومات قيمة حول عادات وتقاليده سكان البلاد التي زارها، خاصة منهم *البمبارا والتكرور*. وعلى الصعيد السياسي تمكن غالييني من توقيع اتفاق مع الزعيم أحمدادو شيخو.

5-غوستاف بانغر Gustave Binger:

كانت رحلة هذا المستكشف بأمر من وزارة الخارجية الفرنسية بعد توصية من الحاكم فيدهيرب، وتمثلت مهمته في المسح الجغرافي لثنية النيجر، ومن الناحية السياسية طُلبت منه محاولة ربط المحطات الفرنسية في السودان الفرنسي وخليج غينيا عن طريق عقد المعاهدات مع شيوخ المناطق المستكشفة⁵.

وجاءت رحلة هذا المستكشف في الوقت الذي كانت فيه القوى الأوروبية في أوج تنافسها على إفريقيا، لهذا كان يؤمن بأن فرنسا لا بد أن تحافظ على تقدمها في غرب إفريقيا ومواجهة القوى المنافسة لها⁶.

غادر بانغر مدينة سان لويس بالسنغال في 12 مارس 1887م، وتوجه إلى الشرق بهدف الوصول إلى مدينة بياكو لاعتقاده بأن الطريق إليها أكثر أمناً وفرص النجاح في عبورها كبيرة، ولم يسبق لأحد الوصول إلى بياكو انطلاقاً من خليج غينيا⁷. بلغ بياكو

1 - BESANCENET, ALFRED DE: OP.CIT, P.112

2 - GALLIENI, JOSEPH-SIMON: OP.CIT, PP.620-621

3 - FAI-DHERBE, LE GENERAL: OP, CIT, P.309

4 - BESANCENET, ALFRED DE: OP.CIT, P.112

5 - BINGER, GUSTAVE: DU NIGER AU GOLFE DE GUINEE PAR LE PAYS DE KONG ET LE MOSSI, HACHETTE, PARIS, 1892, TOME1, P.2

6 - IBID, P.1

7 - IBID, PP.4-5

يوم 21 جوان 1887م، وفي شهر فبراير 1888م وصل إلى بلاد الكونغ ¹Kong. بعد ذلك اتجه إلى وغاندوغو ²Ouagadougou ثم عاد إلى بلاد الكونغ ³، ومنها اتجه إلى ميناء جراندي بسان على خليج غينيا فوصله في مارس 1889م ⁴. ومع بلوغ خليج غينيا، يكون بانغر قد حقق إنجازاً مهماً، حيث عبر بلاداً لم يعبرها أي أوروبي من قبله، وقدم عملاً ضخماً عن شعوب تلك البلاد في علم الإثنوغرافيا واللسانيات ⁵.

كان هذا المستكشف آخر مستكشف استعماري فرنسي كبير يتجول في منطقة غرب إفريقيا مع نهاية رحلته سنة 1892م. في 5 أوت 1890م، اتفقت فرنسا وبريطانيا على تقسيم المناطق الداخلية لغرب إفريقيا يفصل بينهما خط يمتد من مدينة ساي على نهر النيجر حتى مدينة باروا Barroua عند بحيرة تشاد، وفي اليوم الموالي كلفته وزارة المستعمرات الفرنسية بمهمة التعرف وتحديد هذا الخط ⁶.

موجهاً بالتعليمات والنصائح التي قدمها له سلفه المستكشف بانغر ⁷، وبخبرة استكشافية اكتسبها من رحلة شملت المناطق الواقعة بين السنغال وبماكو في الفترة 1884-1885م ⁸، انطلق مونتي من فرنسا يوم 20 سبتمبر 1890م، وفي 4 أكتوبر من السنة نفسها وصل إلى سان لويس في السنغال ⁹. مباشرة بعد الوصول إلى سان

1- IBID, PP10, 288

2- عاصمة بوركينا فاسو. يُنظر: GDEL, OP.CIT, TOME 7, P.7684

3- DUMONT, JEAN (ED.): OP.CIT, TOME5, P.191

4- CORNEVIN, ROBERT: HISTOIRE DE رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا AFRIQUE, PAYOT, PARIS, 1966, TOME2, P.552

5- IBID, P.565

6- MONTEIL, PARFAIT-LOUIS: DE SAINT-LOUIS A TRIPOLI PAR LE LAC TCHAD, FELIX ALCAN, PARIS, 1895, PP.2-3

7- IBID, P.9

8- IBID, P.16

9- IBID, PP.11-12

لويس، بدأت رحلة مونتي على رأس بعثة تضم فرنسياً واحداً وثمانية سنغاليين مسلّحين، وتمكنت البعثة من عبور أبرز مدن وعواصم البلاد الممتدة بين السنغال وليبيا مروراً بحوض النيجر وبحيرة تشاد، ومن هذه المدن سيجو، وغادوغو، ساي، كانو، كوكا، مرزوق وأخيراً طرابلس التي وصلتها البعثة في 10 ديسمبر 1892م¹.

ثانياً: نتائج الكشف الجغرافية:

استغرق استكشاف دواخل إفريقيا الغربية قرابة القرن؛ أي ما بين نهايتي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وهي فترة انجرت عنها العديد من النتائج، أبرزها:

1- التغلغل الاستعماري في المنطقة:

عندما زادت معرفة الأوروبيين بمنطقة غرب إفريقيا، وبالخيرات التي تتمتع بها انطلق الصراع الاستعماري الأوروبي عليها، خاصة بين فرنسا وبريطانيا صاحبتَي الحضور القوي في الساحل الغربي لإفريقيا بعد أن خفت الوجود البرتغالي والإسباني والهولندي في المنطقة خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

بالنسبة لفرنسا، وبعد الهزائم المتلاحقة لنابليون بونابرت، كانت الرغبة في إعادة بناء الإمبراطورية الفرنسية ملحّة جداً، وازداد الحماس الاستعماري لإفريقيا في عهد نابليون الثالث (1848-1870م)²، ليلبغ ذروته بعد مؤتمر برلين سنة 1884م. والحقيقة أن تقدم فرنسا في غرب إفريقيا تسارعت وتيرته في النصف الثاني من هذا القرن، وكان التقدم الفرنسي في هذه المنطقة يسير وفق سياسة تميّزت بالحذر والصبر³، لكنه كُئِل في النهاية، ببناء إمبراطورية فرنسية في المنطقة بلغت مساحتها أربعة ملايين

1- IBID, P.443

2- إلهام محمد علي ذهني: جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي 1850-1914، دار المريخ، الرياض، 1988، ص 61.

3- SONOLET, LOUIS: AFRIQUE OCCIDENTALE FRANÇAISE, LIBRAIRIE HACHETTE, PARIS, 1912, P.2

وستمئة ألف كيلومتر مربع، أي سُدس القارة الإفريقية¹، و هي الإمبراطورية التي حملت إسم إفريقيا الغربية الفرنسية، وضمت السنغال، موريتانيا، السودان الفرنسي (مالي)، غينيا كوناكري، كوت ديفوار، بنين، النيجر وبوركينا فاسو².

أما بريطانيا فاهتمامها بالأراضي الداخلية في غرب إفريقيا سينطلق بعد أن أصبح بنجامين ديزرايلي Benjamin Disraeli رئيساً للوزراء سنة 1874م، وهو الذي سيشجع التوسع الاستعماري لبلده في المنطقة. لم يكن التوغل البريطاني في المنطقة سهلاً، ففي منطقة ساحل الذهب (غانا) واجه البريطانيون مقاومة شرسة من قبائل الأشانتي، لكنهم في النهاية استطاعوا إخضاع المنطقة على ثلاث مراحل، الأولى سنة 1874م، والثانية عام 1896م، والثالثة عام 1900م، ليتم إلحاق أراضي هذه القبائل إلى مستعمرة ساحل الذهب البريطانية³. أما في نيجيريا كان الأمر مختلفاً، حيث استطاع البريطانيون إيصال نفوذهم إلى بلاد/هاوسا بفضل جهود التجار البريطانيين⁴، الذين وقّعوا العديد من الاتفاقيات التجارية مع الزعماء المحليين، وبعد اتفاقية تقسيم مناطق النفوذ في المنطقة بين بريطانيا وفرنسا سنة 1890م، ازداد النفوذ ليشمل معظم بلاد اليوروبا مع حلول عام 1896م⁵.

2- توقف تجارة الرقيق:

من الفضائل التي تُحسب للمستكشفين الأوروبيين المساهمة في منع تجارة الرقيق في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وإن كانت هذه الفضيلة لا تشمل جميع المستكشفين وإنما البعض منهم فقط. والحقيقة أن هؤلاء المستكشفين، من خلال كتاباتهم التي رصدتها الجمعيات والصحف، عرّفوا الرأي العام الأوروبي بطريقة غير

1 - IBID, P. 1

2 - إلهام محمد علي ذهني: المرجع السابق، ص 59.

3 - CORNEVIN, ROBERT: OP. CIT, P. 557

4 - FAGE, J.D: A HISTORY OF WEST AFRICA: AN INTRODUCTORY SURVEY, CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS, 4TH EDITION, 1969, P. 169

5 - FAGE, J.D: OP. CIT, P. 171

مباشرة بالمعانة التي كان يتكبدتها السود في غرب إفريقيا على يد تجار الرقيق المحليين والأوروبيين على حدٍ سواء. وإذا كان هناك من المستكشفين من اكتفى بنقل معاناة العبيد، فهناك آخرون طلبوا صراحة من حكوماتهم التدخل لمنع هذه المعاناة وإيقاف تجارة الرقيق على غرار المستكشف الفرنسي بول صوليهيه Paul Soleillet، كان صوليهيه من المعارضين لتجارة الرقيق وأنواع الذل والاستعباد التي كان يتعرض لها العبيد، وللتخفيف من معاناتهم اقترح هذا المستكشف شراء العبيد ونقلهم إلى الصحراء من أجل تعميرها بالزراعة، وتقديم المساعدات اللازمة لهم كأدوات الزراعة وبناء القرى والمدن لاستقبالهم، وبعد ذلك تُمنح لهم الحرية وفق التزامهم بالعمل، وبذلك يتحقق تعمير الصحراء القاحلة واستغلالها، وفي نفس الوقت المساهمة في القضاء على تجارة الرقيق¹.

3- إثراء التراث الجغرافي والتاريخي:

تمكن المستكشفون من تحقيق العديد من الاكتشافات الجغرافية والدراسات والبحوث حول المنطقة من النواحي السياسية، الاقتصادية، التاريخية، الاجتماعية والثقافية. ويمكن الاطلاع على نتائج هذه الدراسات في الكتب التي كتبها ونشرها هؤلاء المستكشفين، وهي كثيرة وحافلة بالمعلومات، وساهمت بشكل كبير في توثيق تاريخ المنطقة. ولا يتسع المكان هنا لذكر كل هذه الكتب والمنشورات، ولكننا سنكتفي هنا بذكر أهم النماذج، منها:

- رحلات في الأقاليم الداخلية من إفريقيا *Travels in the Interior Districts of Africa*: هو الكتاب الذي أصدره مونجو بارك في سنة 1799م، سرد فيه مشاهداته حول كل المناطق التي زارها، مقدماً وصفاً دقيقاً للسكان وعاداتهم، وللمناخ، والتجارة، وكل الصعوبات والمخاطر التي واجهها في رحلته².

1 - GROS, JULES: NOS EXPLORATEURS EN AFRIQUE, TROISIEME EDITION, ALCIDE PICARD ET KAN, PARIS, 1893, p.38

2 - جوزفين كام: المرجع السابق، ص 96

- يوميات رحلة إلى تمبكتو وجني في الصحراء الوسطى *Journal d'un voyage à Temboctou et à Jenné dans le Sahara central* : هي عنوان مذكرات المستكشف رونه كاييه، أصدرها في كتاب من ثلاثة أجزاء.

- يوميات رحلة لكشف مجرى ومصب نهر النيجر *Journal of an expedition to explore the course and termination of the Niger* : هو الكتاب الذي ضم مذكرات الأخوين لاندن حول رحلتها واستكشافها لنهر النيجر ومصبه، وقد صدر سنة 1832م¹.

- سرد للرحلات والاكتشافات في شمال نيجيريا *narrative of Travels and Discoveris in Northern Nigeria* : هو عنوان الكتاب الذي ألفه ديكسون دنهام الذي تمكن، إلى جانب والتر أودني وهوغ كلايرتون، من اكتشاف بحيرة تشاد ونفى الاتصال بينها وبين نهر النيجر، كما أنه عرّف بالعديد من الشعوب والبلاد والمدن المكتشفة والطرق التجارية، ودفع الجغرافيين الأوربيين إلى الاستغناء عن كتاب حسن الوزان الذي كان إلى ذلك الوقت مصدرهم الرئيس عن المنطقة².

- رحلات واكتشافات في إفريقيا الشمالية والوسطى *Voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale* : ترك هاينريش بارث تراثاً علمياً واسعاً تضمّن كتابه هذا، ذو الخمسة أجزاء، وفيه سجّل كل الملاحظات والنتائج والحقائق التي شاهدها وتوصل إليها خلال نصف عقد من التجوال عبر البحار والصحاري والحمادات والأنهار، شاهد فيها شعوبا وقبائل متعددة، بعبادات وتقاليد ومعتقدات متنوعة. هذا الكتاب يُعتبر من أوسع وأكمل الأعمال التي يفخر بها أدب الاكتشافات الجغرافية في القارة الإفريقية، وقد طُبِع عدة طبعات، وتُرجم إلى عدة لغات³.

1 - أحمد نجم الدين فليجة: المرجع السابق، ص 61.

2 - جوزفين كام: المرجع السابق، ص 130.

3 - أنيليو موري: المرجع السابق، ص 42.

إضافة إلى كتابه الهام، يُحسب لبارث التعريف بأحد أهم مصادر تاريخ السودان الغربي في العصر الحديث، وهو كتاب *تاريخ السودان*¹، الذي عثر عليه في بلدة *غواندو* وهو متوجه إلى تمبكتو².

- خاتمة:

ومجمل القول، فإن الاستكشافات الأوربية في دواخل إفريقيا الغربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي كانت منعرجاً حاسماً في تاريخ المنطقة، رغم أن التواجد الأوربي في الساحل الغربي لإفريقيا كان قد مرَّ عليه أربعة قرون تقريباً، لأنه جلب لها انتباه الدوائر الاستعمارية في أوروبا، بعدما عرّفها بالامكانيات والثروات الضخمة التي تتوفر عليها، وهذا ما تسبّب في انطلاق الصراع الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا على المنطقة خلال النصف الثاني من هذا القرن، وكانت النهاية أن سيطر هذان البلدان على المنطقة برمتها، فدخلت مرحلة جديدة من المعاناة تحت الحكم الاستعماري، بعد تلك التي عانت منها في ظل تجارة الرقيق.

وإذا كانت الكشوف الجغرافية من الأسباب التي أدت إلى استعمار دواخل إفريقيا الغربية، فلا يمكن أن ننكر بأن بعض المستكشفين الذين تحولوا في المنطقة خلال القرن التاسع عشر ميلادي؛ ساهموا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في ميلاد حركة فكرية وسياسية في أوروبا ناضلت من أجل إيقاف تجارة الرقيق، حتى تحقق ذلك في النصف الأول من هذا القرن، وإن كان ذلك تدريجياً.

1 - ألفه عبد الرحمان السعدي بن الحاج المتوكل، وهو يغطي حوادث الفترة السابقة للحكم المغربي بالمنطقة، وهو من أهم المصادر الأساسية عن تاريخ السودان الغربي. يُنظر: عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص56.

2 - زاهر رياض: المرجع السابق، ص280.